

شخصيات تاريخية

٤ - تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب

مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب



لعل من الغريب أن نرى الديمقراطية الأثينية لا تقي تيموستوكل حقه من المجد والسلطان بعد انتصاره في معركة سلامين ، بل على العكس من ذلك تنكرت له . ونحن لا نستطيع أن نبخسه حقه كما فعلت معه الديمقراطية الأثينية ، فشانها في هذا ربما لا يختلف في قليل ولا كثير عن شأن الديمقراطيات الأخرى في القديم أو الحديث . ومحدثنا هيرودوت أنها ذهبت إلى أبعد من هذا فعملت على أن تتخلص منه ، فأرسلته في بعثة إلى أسبرطة ليطلب إليها أن تمد يد العونة الحربية إلى أثينا في أقرب فرصة ممكنة ، ولكنه فشل في هذه البعثة وعاد إلى وطنه فاستقبله مواطنوه استقبالاً فيه شيء كثير من الفتور ، وأخذ عليه الأثينيون بوجه خاص كبرياءه وغطرسته ، وحان وقت الانتخابات

فلم يظهر اسمه من بين المنتخبين ليكونوا الاستراتيج للشرطة وللشرفون على الحكم في الدولة ، وأبعدوه عن الحكم وفضلوا عليه زعيم المحافظين وهو أرشيد . ولعل هناك وجهاً للمقارنة بين هذا الموقف وموقف الديمقراطية الفرنسية خداة انتصارها في الحرب العالمية الكبرى الماضية ، إذ تنكرت هي الأخرى لزعيمها وصاحب الفضل في انتصارها وهو كليمنصو فلم تنتخبه رئيساً للجمهورية ؛ بل فضلت عليه شخصاً دونه في البعيرة ، بل إنه بعد في حكم التوسطين . وتعليل هذا بسيط : ذلك أن الديمقراطية تخاف على نفسها من هؤلاء الأبطال الذين يحرزون لها هذا النصر ويشيدون لها هذا المجد أن تحسبهم أنفسهم أن يحكوها عن طريق العنف والاستبداد كمثل دكتاتور يستبد بالسلطة بعد اشتداد أمره وازدياد أتباعه ، أو بعد نصر يصيبه في معركة للنجم فيها أو بعد نجاح في بعثة أو فد إليها . ومن الطبيعي أن يكون عدم عرفان الجمل على هذا النحو سبباً من الأسباب التي أدت إلى حفيظة تيموستوكل ضد بني قومه ، فكانت هذه الحفيظة في نظرها أولى الخطوات التي أدت إلى تطور تيموستوكل من جانب اليونان إلى جانب الفرس حتى جعلته يقلع عن خدمتهم إلى خدمة أعدائهم

هذه هي المعالم الأساسية للنظام الاقتصادي النازي ؛ وتلك هي الاتجاهات التي يسير فيها ، يبدو من تقصيصها مدى الفراغ الواسع الذي يفصل بينها وبين للنظم الاقتصادية الحرة التي تميز عليها دول كبريطانيا العظمى ومصر وفرنسا والولايات المتحدة . وعلى الذين ينظرون إلى هذا النظام من حيث النتائج التي حققها من انتفاء التعطل من ألمانيا ونشاط جهازها الاقتصادي أن يمتثلوا الظروف التي أحاطت بقيامه ثم وجوده ، والأسباب التي عملت على وصوله إلى النتائج التي وصل إليها . وفي مكتة الدول الأخرى أن تستفيد من دراسته وأن تأخذ ببعض أساليبه التي حققت فوائد لألمانيا ، على أن يلاحظ في تطبيق هذه النواحي أتم الحيلة والحذر ، فالألمانيا تخالف في روحها ونظمها وتقاليدها الشعوب الحرة الأخرى . فالأخذ بالنظام الاقتصادي الألماني وتطبيقه على حالته كما يبدو لبعض قصار النظر من الناس أمر لن ينتج منه سوى هدم كيان بلادهم وزعزعة نظمها الاقتصادية والاجتماعية وتعرضها للانهدام .

فؤاد محمد شبل

مفتش بمدرسة اسكندرية

هذه الحركة مظهراً من مظاهر تنفيذ مشروع السنوات الأربع الثانية إذ أنه اتصل بحركة إنشاء المصانع الجديدة الخاصة بتحقيق الاستكفاء الاقتصادي للبلاد .

ولقد وجه إلى حركة إنشاء مساكن العمال ولا سيما التي تقوم على إنشائها المنشآت الصناعية كثير من أوجه النقد ، إذ أن هذا من شأنه زيادة اعتماد العامل على غدومه . والواقع أن خطة الدولة الألمانية تجاه عمالها ذات وجهين ، فهي من جهة تجعل من العمال شبه أرقاء لا حول لهم ولا قوة ، فترهقهم بالعمل وتحدد لهم أجورهم وساعات العمل ونوعه ومكانه كما نشاء وإذا بهما من الجهة الأخرى تمتنع بمض الإصلاحات الاجتماعية التي يقوم بها المجتمع الرأسمالي اليوم

ومن الخير أن نقرر أن طموح ألمانيا نحو هجرة صناعاتها من المدن الكبيرة ونقل العمال إلى الريف لم يتحقق إلا على نطاق ضيق وإن كان ما زال غرضاً نسبي لتحقيقه

والرغم من هذا يتجاهل تيموستوكل هذا التناكر وينسى نفسه ومطامعه ومصالحه الشخصية فيتفق مع خصمه ومناخسه الزعيم أرسيتد على برنامج للإصلاح القوي للفرض منه بث أثينا وإعادة بنائها إلى الحياة بعد أن كانت قد أوشكت على الفناء على أثر غزوة أجريزميس لها ، وذلك ببناء ما دمر من بيوتها وإصلاح ما خرب من أراضيها ، وكان أساس هذا البرنامج العبارة اليونانية الشهيرة التي مؤداها أن يجعل أثينا تعتمد على ميناء يبريه ، وكذلك الأرض تعتمد على البحر

وهذا البرنامج واسع شاسع لا يمكنه أن يتم في يوم وليلة ؛ لذلك نجده يفضل الأهم على المهم ، والضروري على الزائد عن الحاجة ، فيشجع على البدء أولاً بإقامة التحصينات اللازمة للدفاع عن الدولة بعد تخريب للفرس لها ، أما بناء البيوت وإزالة الخرائب والاتقاض عنها ؛ وأما إقامة المبادئ الجيدة التي تناسب الآلهة فإنه يعمل على تأخيرها إلى فرصة أخرى مناسبة ؛ ثم نراه يبحث قومه على الإسراع في بناء هذه التحصينات حتى يتموها في شهر واحد تقريباً ، وكانت نتيجة هذا كله أن أصبحت أثينا محاطة بسور متين يبلغ طوله ٩ كيلو مترات

وأت لا نستطيع أن نظن أن تنفيذ هذا البرنامج سهل يسير ، كلائم كلا ذلك أن أعداء أثينا واقفون لها بالرصاد ، مثل الدول المحيطة بها ، كاربجينا وميجارا وكورنت . وقد فهمت هذه الدول للنصد الذي ترى إليه أثينا ، فأخذوا يترصدون لها ويحقدون عليها ، وعلى الأخص بعد موقعة سلامين ، لأنها كانت تعتبر صاحبة الفضل الأول في إحراز النصر لليونان جميعاً ، وقد طلبت هذه الدول إلى أسبرطة التي كانت على رأس الحلف البيلوبونيزي أن تعمل على هدم هذه الأسوار ، فهي تخاف من أثينا أن تستطيع وحدها الوقوف على أقدامها فتنتجح في الدفاع عن استقلالها ضد كل دولة تحدتها نفسها بغزو أراضيها ؛ فإذا ما تمكنت من الدفاع عن هذا الاستقلال والحفاظة عليه ربما أمكنها أن تلعب دوراً مهماً في البيلوبونيز وفي غير البيلوبونيز . وقد لبت أسبرطة هذا النداء وأرسلت سفراء من لديها يتكلمون باسمها أمام المجالس الأينية ، ولكن تيموستوكل يفسد عليهم خطتهم بملوكة مخطئ الخلد والخذاع ؛ فهو يحرص قبل كل شيء

على أن تقام هذه التحصينات في أقرب وقت مهما كلفه ذلك من جهد وعناء ، فتمكن من أن يحصل من مجلس « البولي » على قرار بإرساله هو على رأس سفارة إلى أسبرطة لمفاوضة أهل الحل والعقد هناك ، وفي الوقت نفسه طلب إلى أعضاء سفارته هذه أن لا يبرحوا أثينا حتى يتم بناء هذه التحصينات ؛ ثم ذهب إلى أسبرطة وأخذ يقارض ويقاوض ويماطل في المفاوضة حتى فطن إلى ذلك أعداؤه وأعداء بلاده ، فنهبوا أسبرطة إلى هذا الخداع وطلبوا إليها الإسراع في العمل على تنفيذ رغبتهم حتى لا يفلت الأمر من يدهم ويدها . فترسل أسبرطة سفارة ثانية إلى أثينا ولا تكاد تصل هذه السفارة إلى هذه المدينة حتى تكون الأسوار قد تمت بفضل تفاني جميع المواطنين من شب وشبان ونساء وأطفال في إتمامها ، فاستطاع بعد ذلك أعضاء وفد تيموستوكل مبارحة أثينا والانفهام إليه في أسبرطة ، فلما رآهم قد أصبحوا إلى جانبه خلع اللثام وكشر عن الأنياب ورفع الصوت عالياً ملئاً لكل من يريد أن يستمع له أن بلاده لا تخضع لوعيد ولا تهديد ، وأنها إذا أرادت أن تأتي أسراً في داخل بلادها فهي وحدها صاحبة الأمر في ذلك ، وهي حرة التصرف في شؤونها الداخلية لا تقبل من أية دولة ولا من أية جهة أن تتدخل في أمورها ؛ لذلك فإنها ترفض طلب أسبرطة وحلفائها . وما استطاع تيموستوكل إعلان هذا الرأي إلا بعد أن رأى أن وطنه قد استطاع الظفر في الحرب ضد الفرس ، بل وأن هذا الظفر يرجع قبل كل شيء إلى جهود بلاده وتضحياتها ، فإن كانت الدول اليونانية الأخرى قد ساهمت في إحراز هذا النصر العام فإن هذه المساهمة ضئيلة لا تمتد شيئاً مذكوراً إلى جانب ذلك الجهود الجبار الذي بذلته أثينا ، فالمدو قد ضرب أراضيها وانتهك حرمة معابدها وأراضي آلهتها ، والأثينيون بعد ذلك شرذواً أيما تشريد ، وهاجروا من وطنهم إلى بلاد سلامين على نحو ما ذكرنا في المقال السابق ، والأرض الأينية كانت الميدان الذي قامى الأهوال ، وتحمل الكوارث والصائب . أما للبلاد الأخرى في البيلوبونيز فلم تقاس شيئاً من أهوال هذه الحرب . أنهمل بحق لها بعد ذلك أن تقسو على أثينا ، وأن تطلب إليها أن تكون مجردة من كل وسيلة من وسائل الدفاع ، وخاصة وأن تيموستوكل

atèleia وهي التي كانت تفرض على كل أجنبي يريد أن يقيم بها ، فكثر سكانها وازدهروا ازدهاراً عظيماً حتى أصبحت بعد ذلك أهم ميناء في البحر الأبيض المتوسط ، واعتبرت قلب الإمبراطورية الأثينية للناقص . ففيها رسوا الأسطول وهو عماد الإمبراطورية الأثينية للبحرية ، ومنها تصدر الصادرات الأثينية وإليها ترد الواردات من الخارج ، كالقمح والخشب والمعادن من البلاد المحيطة بالبحر الأسود أو من آسيا الصغرى ومصر ، وكذلك من طريق الغرب من صقلية وبلاد اليونان الكبرى في جنوب شبه جزيرة إيطاليا

سار للشعب الأثيني وراء تيموستوكل واتباع نصائحه ونفذ إرشاداته وتوجيهاته ولكن إلى حين ! ثم سحب بعد ذلك ثقته من هذا البطل ومنعها لخصومه زعماء الحزب الأرستقراطي ، وكان من أبرزهم في ذلك الوقت أرسيتد الذي طالما ذكرنا اسمه وشخصية أخرى جديدة ظهرت إلى جانبه ثم حلت محله بعد ذلك في زعامة هذا الحزب ، هي شخصية للشاب الأرستقراطي سيمون بن مليتاد بطل ماراتون . وكانت هذه الشخصيات الثلاث عبارة عن ثلاث يوجه شؤون الدولة ويدير دفتها في هذه الحقبة من التاريخ

تغلب هاتان الشخصيتان الأرستقريتان ، أرسيتد وسيمون ، في عالم السياسة الأثينية بقدر ما تتوارى شخصية تيموستوكل ويأفل نجمه ، وتتفق هاتان الشخصيتان على السياسة الخارجية وهي تقضي بالانصراف إلى شؤون حلف ديلوس والاهتمام بأمره حتى يكمل تنظيمه فيستطيع حينئذ أن يحقق الغرض الذي من أجله أسس وهو انعقاد عن اليونان في بحر إيجه وفي غرب آسيا الصغرى ضد الفرس ، وما لا يترددان ، في سبيل تنفيذ هذه السياسة ، عن الاتفاق مع أسبرطة وتقسيم مناطق النفوذ معها ؛ فلها للبر ولأثينا للبحر . أما تيموستوكل فيقول بنير هذا ، يقول بتوجيه الاهتمام إلى حلف ديلوس ولكن على أن يكون هذا الحلف هو القوة المسيطرة وحدها في بلاد اليونان جميعاً ، فيجب أن تكون لأثينا السيادة في جميع أجزاء العالم اليوناني ، وهو يعلم تمام العلم أنه لا يستطيع تنفيذ هذه

ومعه الأثينيون ما زالون يستعدون أن الحرب لم تنته وأن الفرس ربما يرجعون مرة أخرى لغزو بلادهم ؟ كلا ! إن ذلك لا يمكن أن يحدث بعد الآن فالدولة الأثينية قد أصبحت رشيدة تستطيع أن تدافع عن مصالحها وحقوقها ، بل وأن تذهب إلى أكثر من ذلك فتتساقى عن الحياة القتالية إلى السياسة العامة ، وهي سياسة الدفاع عن جميع بلاد اليونان قاطبة . لم يمس أسبرطة أمام هذا الإصدار إلا أن ترضخ فتركت أثينا وشأنها . وقد لامها حلفاؤها وطابوا عليها هذا الملك فوسفوه بأنه يتم عن الضعف والتخاذل والإهمال ، لأنه من غير شك سيساعد أثينا على الضيق في طريقها بعد أن رأت أن أكبر الدول اليونانية لا تستطيع أن تمنعها من تحقيق سياستها ، فتشجعت ونهضت بعد هذا البعث الجديد وتمكنت من أن تمير قداماً إلى الأمام لتنفيذ سياستها الأمبريالية وهي سياسة التوسع والفتوح

نجح إذن تيموستوكل في هذه المهمة ، وهي إحاطة أثينا بالأسوار والتحصينات ، ولكنه لم يهدأ له بال بعد ذلك إذ رأى أن هذه الأعمال الدفاعية لا تحقق للغرض منها إلا إذا أكلت بأعمال أخرى في ميناء بيريه . فيوجه إلى هذا الميناء كل جهوده لاكتفاده الجازم أن هذه الأعمال كلها مرتبطة ببعضها تمام الارتباط ، فلا يصلح عمل منها دون أن يتم للعمل الآخر ، وهو كثيراً ما نادى — على نحو ما رأينا فيما سبق — أن مستقبل أثينا على البحار ، لذلك لم يكن من الغريب أن تكون سياسته كلها موجهة نحو البحر ، بل مركزه على البحر ، فالبحر في نظره عماد كل شيء كما قال في تلك العبارة الشهيرة التي أوردناها منذ حين : « أن الأرض الأثينية تعتمد على البحر والمدينة تعتمد على ميناء بيريه . وتنفيذاً لهذه السياسة يعمل على إحاطة ميناء بيريه هي الأخرى بسور ، وقد تم ذلك قبل أن يبلغ طوله عشرة كيلو مترات بعد أن بنى من الأحجار الضخمة التي استخرجها من المحاجر المجاورة . بل ربط تيموستوكل هذا الميناء الجديد بالميناءين المجاورين هما « زيا » و « مونخيا » وجعلها كلها ميناء واحدة ومدينة واحدة ، وشجع الناس على أن يقدوا إليها من الخارج ، أي من البلدان القريبة منها ، فأقبلوا زراقات ووحداناً ، بعد أن رأوا أنفسهم قد أعفقتهم هذه المدينة من الضريبة الثقيلة المسماة